آخر الدهر؟ أقُضيَ عليَّ أن أُردَّ كما كنت فلاحة من بنات الريف تنفق نهارها في هذا العمل الآلي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان؟ كلا …!

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة، وقد رأيتهم يفرغون حقائبهم، فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة، منها الضخم ومنها النحيف، منها متقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالًا، منها ما جُلِّد في عناية وما ترك على حاله التي خرج بها من المطبعة! ولكن أين مني هذه الكتب؟ وكيف السبيل إلى النظر فيها؟ بل كيف السبيل إلى الوصول إليها؟ هنا حدثتني نفسي بما لم تحدثني به قط، فأنكرت حديثها بعض الشيء، ولكني لم ألبث أن عرفته وقبلته واطمأننت إليه ثم صممت عليه تصميمًا، وأي بأس في أن أختلس الكتاب اختلاسًا فأنظر فيه وقتًا طويلًا أو قصيرًا، ثم أرده إلى مكانه لم يمسسه بأس ولم يصبه مكروه؟ أسرقة هذه؟ أإثم هذا الذي أنا مقدمة عليه، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلًا؟ والله يشهد ما سرقت ولا فكرت في السرقة، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس إلا هذه المرة، والله يشهد ما لُمت نفسي على ذلك ولا أشفقت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسي منها حظًّا، وفيها خوف وإشفاق، وفيها بين ذلك لذات لن أنساها، فكم خدعت أهل الدار، وكم تغفلتهم، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بيني وبين ثوبي، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسي مأمنًا لا أخشى أن يُعثر عليَّ فيه، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقي عليه نظرات طوالًا أو قصارًا تغريني به أو تصرفني عنه، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف ولهذه القراءة لذةً غيرت حياتي تغييرًا وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس، صورة خديجة وصورة هذا الشاب.

نعم! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفني عن هذا كله، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح الماء على سادتي في ليلة من الليالي: سمعت حديثًا عن المأمور اضطربت له نفسي اضطرابًا، ولولا أني أنفقت جهدًا عنيفًا لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية؛ فقد نُقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر، وكان هو الذي طلب هذا النقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان، والناس يهمسون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابنته من جوار المهندس الذي كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة، والناس يختلفون، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذي قطع الخطبة لأشياء بدت له، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذي رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب.